

## تغيير، أم اختزال وتبديد؟!

قد يبدو أن فقراً أو جدباً بيرر - ولا مبرر - تعثر اختيار البديل، وهذا التذرع كاذب ويسقط ويتجاهل أننا صانعوه المتسبون فيه، على أن الأخطر من هذا وبالأحرى، أن يقفز التغيير فوق أربعة أو خمسة أجيال، يتجاهلها أو يعصف بها بمنطق المقصلة، وينصرف عن قامات عالية قائمة واثقة قادرة على العطاء، ليختزل الاختيار فى شريحة عمرية أصغر بثلاثة أو أربعة أجيال!! ماذا يعنى هذا؟! هل يعنى أن الاختيار لم يجد فيما بين الأربعين والسبعين قامات جيدة لائقة صالحة بحكم الجمع بين العلم والمعرفة وبين الخبرة والحنكة لحمل المسؤولية!.. إن أحداً - مهما أصاب الحول والغرض والهوى منطق - لا يستطيع أن يزعم هذا الزعم!! وذلك يعنى أن تجاوز هؤلاء، بمنطق المقصلة، تحركه أغراض! - ولكن ماهى هذه الأغراض ما دمنا نبحث عن الأصلح لمصر!.. هل يضير الشباب اللامع الصالح للانتقاء، أن يكون إلى جوار كبار جمعوا إلى العلم الذى تعلمه ما قد يزيد عليه، وجمعوا إلى جواره خبرة طويلة ليست له!.. لماذا إذن هذا الاختزال إلا أن يكون كما يقال تهيئة لمسرح يخلو من القامات العالية حتى يستطيع أن يلى القمة من قد يجد غضاضة فى أن المرءوسين أو معاونين أو المشاركين فى حمل المسؤولية، أعرض علماً ومعرفة، وأطول خبرة ودراية، وأعلى قامة! فإذا كان ذلك، وهو كذلك، فما هى الثروة البشرية الهائلة التى تبدها مصر بهذا الاختزال!!

إن الطاقات البشرية، والخبرات الإنسانية، هي الثروات الحقيقية للأمم.. وهى أبقى وأمضى وأبلغ أثرا من الثروات المادية التى تروح وتجىء، فإن جاءت فإنما تجىء بفضل الطاقة البشرية، وهل كانت تجربة ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية إلا شاهدا مشهودا على ذلك!! كانتا كلتاهما قد تحولت إلى دمار كامل ينق فيهما البوم، فما هى إلا سنوات قصار إلا وارتفعتا بطاقتهما البشرية إلى قمة الاقتصاد العالمى وقوة التأثير السياسى والاقتصادى فى بقاع الأرض!!

يا سادة أى طاقة بشرية بددناها وأتينا عليها وكدنا نكون قد أعدمناها فى سنوات التجميد التى بلغت ربع قرن ١٩، وأى طاقة بشرية نتجاوزها الآن ونقصيها ونحكم عليها بالموت صبورا ونحن نخترل مصر ليستقيم دست الحكم للمروم أن يتبوأه وتحتة قامات أصغر لأن القامات العالية سوف لا تطاق!٩ ألا يترفق أحد بمصر لوجه الله.. والوطن!٩

ففيما يبدو أنه استجابة لأهداف أخرى غير دواعى التغيير الذى صُمت الأذان عنه ربع قرن، انعطفت السياسة المصرية انعطافة حادة يحسبها الظلمآن ماءً، وهى فى الواقع علقم!.. بدت وكأنها أخيرا وبعد طول إلحاح قد استجابت ولبت واقتنعت بوجود التغيير والتجديد والإحلال!.. بيد أن الذى حدث لا يمت بصلة للتجديد والإحلال الذى عرفته الدنيا يجرى تدريجيا ووفق منظور وحسابات تطعم وتجدد ولا تبدد أعز ما لدى الأمم من ثروات، وهى ثروتها البشرية من أصحاب المعرفة والعلم والخبرة الذين يتشكلون بمعاناة ومكابدة السنين!.. سبقت الإحلال والتبديد حملة عجيبة لا تدعو - كما يقول ظاهرها - للشباب، فلا أحد ضد الشباب، هم أولادنا وأحفادنا ولا غناء لهم أيضا عن علم الآباء العريض وخبراتهم الطويلة، وإنما وكأنها تومىء إلى وجوب التخلص من "الشيوخ" كأنهم خيول الحكومة التى

شاخت ويتوجب ضربها بالرصاص.. الشيوخ المقصودون بالتخلص فى هذه الحملة المريبة فى أغراضها ومآربها - هم "زبدة" و "عصارة" و"بهريز" و "خبرة" و "عقل" و "بصيرة" مصر.. والعجيب أن مطلقى هذا المنظور الملبوس هم الذين استخدموا رجالا حتى جاوزو الثمانين بعدة سنوات، ولم يزحزحوا إلا بطلب أحدهما، والآخر لدواعى إحلال شخص آخر محله رغم تحريكه من موقعه الوزارى الذى احتله ربع قرن!.. يومها رأيت الدموع تظفر من عيني الشيخ الكبير الذى جاوز الثمانين وكأنه يفارق الحياة، مع أنه مكث سنين عددا فى موقعه، وبلغ منتصف الثمانينيات.. لم تكن الحملة إذن كظواهرها المخادع المعطى لها، وإنما كانت تبريرا مقصودا لتجاهل واستبعاد القامات العالية، وكأنه قدر على القامات العالية أن تضيع ببدأ بين التجميد والاختزال!.. نعم، الحملة الجديدة وإن حملت رداء التجديد، إلا أنها فى واقعها وحقيقتها حملة "اختزال" تستهدف تبديد واستبعاد أربعة أجيال بكاملها مرة واحدة، للقفز إلى جيل معين بين الثلاثينيات وأول الأربعين يورى الانحصار فيه والاقْتصار عليه أنه مخطط مرسوم لإعداد المسرح لقدام ما لا يستقيم أن يكون فى إدارته قامات عالية!!

هذا الاختزال المكشوف لا يستطيع أن يوارى أغراضه بأنه قد صار ضرورة بزعم تأكل القامات بفعل السنوات الماضية، فهذه تucle مفضوحة المغالطة والغرض والهوى. نعم سقطت خلال سنوات التجميد والجمود أوراق، ونعم خسرت مصر قامات كبيرة بفعل الموت المادى أو المعنوى، بيد أن مصر لا تزال حافلة بقامات عالية، وكيف لا يكون فيها قادرون على العطاء من أبناء الخمسين والستين والسبعين، وها هو مثلا نجيب محفوظ يكتب أحلام فترة النقاها وأصدقاء السيرة الذاتية وقد جاوز التسعين بثلاثة أعوام.. هل صدقنا قانون تصفية أساتذة الجامعات واعتبرنا كل من نحاهم فى سياسة إهدار غربية غير قادر حقيقةً على العطاء!؟.. أليس فى صفوف

الإعلاميين الأحياء الذين يملؤون الدنيا من أبناء الستين وأوائل السبعين من يملأ بعلمه وبخبرته العريضة فى مجاله مقعد الإعلام ويعرف ويدرك ما يقال وما لا يقال - وهذا أول دروس الإعلام!!

لست أريد أن أدخل فى رصد أو إحصاء، فكل مصرى يعرف أن مصر لم تخل من القامات العالية القادرة على العطاء فى الفكر والآدب والثقافة والسياسة والإعلام والتعليم والصناعة والنقل والاتصالات... إلخ، وأن تجاهلهم فى هذا "الاختزال" الجارى لا يعنى أنهم غير موجودين، وإنما يورى بأنهم غير مرغوبين لغرض فى نفس يعقوب أو اليعاقبة!. لم يعد يفوت أحداً أو ينطلى عليه أمر ما فى نفس "اليعاقبة" الذين صار تديبرهم بادياً كفلق الصبح يدفع الأمور دفعا فى اتجاه الإعداد والترتيب لشخص بذاته تحت دعوى الإخلاص، وهم إنما يسعون لأنفسهم أو لما يظنون أنه سوف يكون لهم تحت بند "رد الجميل"، يندفعون إلى ذلك دون أن يعوا دروس التاريخ، ودون أن يهتز لهم رمش عن مصلحة مصر وحققها فى أن لا تبدد طاقاتها وقاماتها العالية بذريعة هذا الهدف الملبوس!!

ليس هذا حديثاً ضد الشباب، ولا حتى ضد من يرتبون له.. إن القامات العالية بعلمها وخبراتها هى "الحضانات" لسداد وتوفيق خطى الشباب بغير عثرات ولا اندفاعات.. تواصل الأجيال يعنى اندماج الأجيال شباباً ووسطاً مع جيل الكبار فى العلم والمعرفة والخبرة.. فى أحضان علم ومعرفة وخبرات هذه القامات، تنمو الأجيال التالية نمواً يمتزج حماسه وشبابه بالخبرة والحنكة.. وتترأى له خطاه آمنة مبصرة.. فى "حضانات" هذه الخبرات الطويلة تتلاحق خطى الشباب فتأخذ ثم تضيف، ولكن الفصم بين الأجيال جناية كبرى على مصر.. أخطر ما فى "الاختزال" الجارى الآن أنه يقطع التواصل ويبدد دفعة واحدة أربعة أجيال كاملة من القامات العالية التى تنفق الدول أعماراً فى تكوينها!!

الاختزال الجارى هو اختزال لمصر، يبدد أغلى ثرواتها، ولا يخدع أحداً أو يخفى سراب المرام المقصود!.. ماجرى ويجرى يأباه العقلاء وتأباه الدول ذات الحضارات.. ليس يصح فى عقل عاقل، ولا فى دولة عاقلة - أن يقفز الاختيار لإدارتها هذه القفزة الهائلة من جيل الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، إلى جيل الثلاثينيات وأول الأربعين!.. وكيف يجرى هذا ويصح فى عقل عاقل بينما رئيسها القادم يبدأ فترة رئاسته القادمة وهو فى السابعة والسبعين!.. ألا يرينا هذا ويرى من لا يرى أن القفز عبر أربعة أجيال قفز غير مفهوم وغير آمن، ويحرم مصر من "عصارة" و"زبدة" خبراتها! إن ما يجرى الآن من تبديد الثروة البشرية من القامات العالية القيمة والمقدرة هو جناية على مصر قبل أن يكون تجنيا عليهم! هذه الجناية لا يرتضيها مصرى يتقى الله فى أمانته ووطنه !